أبو سفيان بين يدي رسول الله - ﷺ -:

وركب العباس – بعد نزول المسلمين بمر الظهران – بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة أو أحداً يخبر قريشاً ؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ، وبديل بن زرقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إني لأسير عليها – أي على بغلة رسول الله ﷺ – إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي . قلت : هذا رسول الله ﷺ في الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، فركب خلفي ، ورجع صاحباه .

قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر ،

فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به ، فذهبت ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ، قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً . فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً . قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة:

وفي هذا الصباح – صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨هـ – غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل[1] ، حتى تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فيقول – مثلاً – : سليم ، فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبره قال مالي ولبني فلان ؟ حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين

(١) الخطم : الأنف ، شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق .

والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ فقال : كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل : بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت زحف الجيش الاسلامي:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأخمش الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وبثوا أوباشا لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل من بني بكر – حماس بن قيس – كان يعد قبل ذلك سلاحاً ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إن يُقبِلوا اليوم فمالي عِلَّه هذا سلاح كامل وألَّه
وذو غرارين سريع السَّلَّه[1]

(١) علَّه : يقال عَلَّ الرجل يعل من المرض ، غرارين : حدين ، السله : الانتشال والسحب .

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخندمة .

الجيش الإسلامي بذي طوى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذي طوى - وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل - وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى - وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافوني على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله ﷺ ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها - من كداء - وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر - وهم الذين لا سلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادي ، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يدخل مكة:

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أنلموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش ، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً ، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخندمة فناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس - الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلقي علي بابي . فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
واستقبلتنا بالسيوف المسلمه ... يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه ... لهم نهيت خلفنا وهمهمه[1]

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

(١) النهيت والهمهمة : أصوات .

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

الرسول ـ ﷺ ـ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١٧ : ٨١) ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٣٤ : ٤٩) والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط . ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت .

الرسول ـ ﷺ ـ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قريش:

ثم أغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه – وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة – ثم صلى هناك ، ثم دار في البيت ، وكبر في نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتي الباب ، وهم تحته ، فقال :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ

شبه العمد – السوط والعصا – ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٤٩ : ١٣) .

لا تثريب عليكم اليوم:

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه عليّ رضي الله عنه ، ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، وفي رواية : أن الذي قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعي له ، فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

بلال يؤذن على الكعبة

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم : قد علمت الذي قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانىء بنت أبي طالب ، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانىء حموين لها ، فقال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء ، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما ، فأغلقت عليهما باب بيتها ، وسألت النبي ﷺ ، فقال لها ذلك .

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل ، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وهي التي وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ، وشفع فيه فحقن دمه ، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه ، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن ، فاستأمنت له امرأته ، فأمنه النبي ﷺ فتبعته ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل فكان متعلقاً بأستار الكعبة ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال : اقتله . فقتله .

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ، ثم ارتد ولحق بالمشركين .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة ، فقتله علي .

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت ،

فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ، ففر هبار يوم مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

وأما القينتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر : وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل الخزاعي فقتله علي ، وذكر الحاكم أيضاً ممن أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك ، وأسلم ومدح ، ووحشي بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، وقد أسلمت ، وأرنب مولاة ابن خطل أيضاً قتلت ، وأم سعد ، قتلت فيما ذكر ابن إسحاق ، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان ، اختلف في اسمهما ، أو باعتبار الكنية واللقب[1] .

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده ، فقال لرسول الله ﷺ : اجعلني بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرهما على النكاح الأول .

وكان فضالة رجلاً جريئاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، وهو في الطواف ، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم .

خطبة الرسول - ﷺ - في اليوم الثاني من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، أو

---

(١) فتح الباري ٨/١١ ، ١٢ .

يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي رواية : لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاؤوا فدم قاتله ، وإن شاؤوا فعقله .

وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له « أبو شاه » فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاه[1] .

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ـ ﷺ ـ في مكة:

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ – وهي بلده ووطنه ومولده – قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها – وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه – فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

أخذ البيعة:

وحين فتح اللهمكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق ، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

---

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ١/٢٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٢ـ٢/٦١٥ ، ٦١٧ ، وصحيح مسلم ١/٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وابن هشام ٢/٤١٥ ، ٤١٦ ، أبو داود ١/٢٧٦ .

وفي المدارك[1] : روي أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : ولا تسرقن . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال : وإنك لهند ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك .

فقال : ولا يزنين . فقالت : أو تزني الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغاراً ، وقتلتموهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم – وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر – فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله ﷺ .

فقال : ولا يأتين ببهتان . فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولا يعصينك في معروف . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور .

إقامته ـ ﷺ ـ بمكة، وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً ، يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي ، فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره .

السرايا والبعوث:

١ – ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى ، لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨هـ) ليهدمها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقريش وجميع بني كنانة ،

(١) انظر مدارك التنزيل للنسفي تفسير آية البيعة .

وهي أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها بني شيبان ، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها ، فهدمها ، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها ، فرجع خالد متغيظاً قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها باثنتين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العزى ، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً .

٢ – ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليهدمه ، وهو صنم لهذيل برهاط ، على ثلاثة أميال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما تريد ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قال : لم ؟ قال : تمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، فهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا فيه شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

٣ – وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة ، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها : ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك ، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا في خزانته شيئاً .

٤ – ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شعبان من نفس السنة (٨هـ) إلى بني جذيمة ، داعياً إلى الإسلام ، لا مقاتلاً . فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم ، فانتهى إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : « صبأنا صبأنا » فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً ، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره ، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ ، فذكروا له ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد – مرتين –[1] .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ١/٤٥٠ ، ٢/٦٢٢ .

علياً فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك ، فبلغ ﷺ فقال : مهلاً يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان أُحُدٌ ذهباً ، ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته[1] .

تلك هي غزوة فتح مكة ، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاءً باتاً ، لم يترك لبقائها مجالاً ولا مبرراً في ربوع الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذي كان دائراً بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جيداً أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أي تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامي الذي لم يزد في الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر في هذه الغزوة في عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام . وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني كليهما معاً في طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية .

فالطور الذي كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم ، وكمل بهذا الفتح المبين ، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماماً ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماماً . ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول ﷺ ، فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم ، وقد تم استعدادهم لذلك في سنتين آتيتين .

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٢٨٩ إلى ٤٣٧ ، وصحيح البخاري ١/كتاب الجهاد وكتاب المناسك و٢/٦١٢ إلى ٦١٥ ، ٦٢٢ ، فتح الباري ٨/٣ إلى ٢٧ ، وصحيح مسلم ١/٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٢/١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ٢/١٦٠ إلى ١٦٨ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٣٢٢ إلى ٣٥١ .

المرحلة الثالثة

وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية ، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاماً .

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام ، تغير لأجله مجرى الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب في ذلك تبع لهم ، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين :

(١) صفحة المجاهدة والقتال .

(٢) صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام .

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة ، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى ، إلا أنا اخترنا في الترتيب الوضعي ، أنا نأتي على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظراً إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب .

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شده لها العرب ، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع ، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة ، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف ، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال – وكلها من قيس عيلان – رأت هذه البطون من نفسها عزاً وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع ، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس

ولما أجمع القائد العام – مالك بن عوف – المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار حتى نزل بأوطاس – وهو واد في دار هوازن بالقرب من حنين ، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين ، وحنين واد إلى جنب ذي المجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات[1] .

مجرب الحروب يغلط رأي القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة – وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً – قال دريد : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصبي وثغاء الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم

(١) انظر فتح الباري ٨/٢٧ ، ٤٢ .

وأبناءهم ، فدعا مالكاً وسأله عما حمله على ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال : راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيئاً ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء ، ثم قال : يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ، ثم ألْقَ الصباة على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ولكن مالكاً – القائد العام – رفض هذا الطلب قائلاً : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعني هوازن أو لأتكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي ، فقالوا : أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

يـــاليتـــني فيهـــا جـــذع أخب فيهـــــا وأضـــــع
أقـــــود وطفـــــاء الدمع كأنهـــا شـــاة صـــدع

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم . قال : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى .

سلاح استكشاف رسول الله - ﷺ -:

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو ، فبعث أبا حدرد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل .

الرسول - ﷺ - يغادر مكة إلى حنين:

وفي يوم السبي – السادس من شهر شوال سنة ٨هـ – غادر رسول الله ﷺ مكة – وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة – خرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد .

ولما كان عشية جاء فارس ، فقال : إني طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرثد الغنوي[1] .

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم أنواط . فقال : الله أكبر ، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم[2] .

وقد كان بعضهم قال نظراً إلى كثرة الجيش : لن نغلب اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يباغت بالرماة والمهاجمين:

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوال ، وكان مالك بن عوف قد سبقهم ، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي ، وفرق كمناءه في الطرق والمداخل ، والشعاب والأحياء والمضايق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا ، ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس ، وفي عماية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه ، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي فبينما هم ينحطون إذا هم تمطر عليهم النبال ، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانشمر المسلمون راجعين ، لا يلوي أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر – الأحمر – وصرخ جبلة أو كلدة بن الجنيد : ألا بطل السحر اليوم .

---

(١) انظر سنن أبي داود .

(٢) روى ذلك الترمذي .

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : هلموا إليّ أيها الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته .

وحينئذ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها . فقد طفق يركز بغلته قِبَلَ الكفار وهو يقول :

أنـــــا النبـــــي لا كذب أنـــا ابن عبـــد المـــطـــلب

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذاً بلجام بغلته ، والعباس بركابه ، يكفانها ، أن لا تسرع . ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً : اللهم أنزل نصرك .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس – وكان جهير الصوت – أن ينادي الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك[1] . ويذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلي سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج ، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة . وتجالد الفريقان مجالدة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتدم ، فقال : « الآن حمي الوطيس » . ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه ، فما خلق الله إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة ، فلم يزل حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً .

انكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة:

وما هي إلا ساعات قلائل – بعد رمي القبضة – حتى انهزم العدو هزيمة منكرة ، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين ، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن .

(١) صحيح مسلم ٢/١٠٠ .

وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ، وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري ، فتناوش الفريقان القتال قليلاً ، ثم انهزم جيش المشركين ، وفي هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة ، فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع .

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف ؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنائم:

وكانت الغنائم : السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ، ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردها إلى قومها .

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام – مالك بن عوف النصري – وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر – شوال سنة ٨هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فمر في طريقه على النخلة اليمانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف في ذلك ، فقيل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر[1] .

ووقعت في هذه المدة مراماة ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذف به القذائف ، حتى وقعت شدخة في جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة[2] ، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ – كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام – أمر بقطع الأعناب وتحريقها . فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم ، فتركها لله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون[3] رجلاً فيهم أبو بكرة – تسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقي عليها ، فكناه رسول الله ﷺ « أبا بكرة » – فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

---

(١) فتح الباري ٨/٤٥ .

(٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها ، أو ليدخلوا من النقبات .

(٣) صحيح البخاري ٢/٦٢٠ .

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة – وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة – استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال : هم ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ : اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قولوا : آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم .

قسمة الغنائم بالجعرانة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف ؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم ، ويتأنى بها ، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا ، ولكنه لم يجئه أحد ، فبدأ بقسمة المال ، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة ، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظي بالأنصبة الجزلة .

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابني يزيد ؟ فأعطاه مثلها ، فقال : ابني معاوية ؟ فأعطاه مثلها ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها . وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة – كذا في الشفاء[1] ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل ، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل ، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه فقال : أيها الناس ردوا على ردائي ، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٨٦/١ .

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة ، فجعلها بين إصبعه ، ثم رفعها ، فقال : أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ، ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة .

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة ، فإن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له[1] .

الأنصار تجد على رسول الله ـ ﷺ ـ :

وهذه السياسة لم تُفهم أول الأمر ، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض ، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصاراً ، وهاهم أولاء يرون أيدي الفارين ملأى ، وأما هم فلم يمنحوا شيئاً قط[2] .

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ؛ قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟» قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي : قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة » ، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم

(١ـ٢) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم » ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار » ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك .

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ؛ لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا[1] .

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وهم أربعة عشر رجلاً ، ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال ، وأدلوا إليه بكلام ترق له القلوب ، فقال : « إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إلي أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟» قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقال : « إذا صليت الغداة – أي صلاة الظهر – فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا » ، فلما صلى الغداة

---

(١) ابن هشام ٢/٤٩٩ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخاري ٢/٦٢٠ ، ٦٢١ .

قاموا فقالوا ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس » ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال العباس بن مرداس : وهنتموني .

فقال رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً . فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا » ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ فقال : « إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم ، ثم ردها بعد ذلك ، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية قبطية .

العمرة والانصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الجعرانة أَهَلّ معتمراً منها ، فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب ابن أسيد ، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة سنة ٨هـ .

قال محمد الغزالي : لله ما أفسح المدى الذي بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ؟

لقد جاء مطارداً يبغي الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعاً من أجله ، وهاهو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجراً خائفاً ؛ لتستقبله مرة أخرى وقد

دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها فأنهضها ؛ ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئاتها الأولى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢ : ٩٠)[1] .

---

(١) فقه السيرة ص٣٠٣ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوات ـ فتح مكة وحنين والطائف ، وما وقع خلالها ـ زاد المعاد ج٢ من ص١٦٠ إلى ٢٠١ ، وابن هشام ج٢ من ص٣٨٩ إلى ٥٠١ ، وصحيح البخاري أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج٢ من ص٦١٢ إلى ٦٢٢ ، وفتح الباري ج٨ من ص٣ إلى ٥٨ .

البعوث والسرايا
بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود ، ويبعث العمال ، ويبث الدعاة ، ويكبت من بقي فيه الاستكبار عن الدخول في دين الله ، والاستسلام للأمر الواقع الذي شاهدته العرب . وهاك صورة مصغرة من ذلك :

المصدقون:

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان في أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩هـ ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل . وهذه هي قائمتهم :

(١)	عيينة بن حصن	إلى بني تميم .
(٢)	يزيد بن الحصين	إلى أسلم وغفار .
(٣)	عباد بن بشر الأشهلي	إلى سليم ومزينة .
(٤)	رافع بن مكيث	إلى جهينة .
(٥)	عمرو بن العاص	إلى بني فزارة .
(٦)	الضحاك بن سفيان	إلى بني كلاب .
(٧)	بشير بن سفيان	إلى بني كعب .
(٨)	ابن اللتبية الأزدي	إلى بني ذبيان .
(٩)	المهاجر بن أبي أمية	إلى صنعاء. (وخرج عليه الأسود العنسي وهو بها).

(١٠)	زياد بن لبيد	إلى حضر موت.
(١١)	عدي بن حاتم	إلى طيء وبني أسد .
(١٢)	مالك بن نويرة	إلى بني حنظلة .
(١٣)	الزبرقان بن بدر	إلى بني سعد (إلى قسم منهم) .
(١٤)	قيس بن عاصم	إلى بني سعد (إلى قسم منهم) .
(١٥)	العلاء بن الحضرمي	إلى البحرين .
(١٦)	علي بن أبي طالب	إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما) .

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في المحرم سنة ٩هـ ؛ بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها . نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في المحرم سنة ٩هـ . وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية ، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً .

السرايا:

وكما بعث المصدقون إلى القبائل ، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا ، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة . وهاك لوحة تلك السرايا :

١– سرية عيينة بن حصن الفزاري – في المحرم سنة ٩هـ – إلى بني تميم ، في خمسين فارساً ، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري ، وسببها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم في الصحراء ، فولى القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ ، فنادوا : يا محمد اخرج إلينا ، فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة ، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس – خطيب الإسلام – فأجابهم ، ثم

قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخراً ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم[1] .

٢ – سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، في صفر سنة ٩هـ . خرج قطبة في عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقتل قطبة من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ – سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩هـ . بعثت هذه السرية إلى بني كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلاً .

٤ – سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ في ثلاثمائة . بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة . فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة . فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا[2] .

٥ – سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء . يقال له القلس – ليهدمه – في شهر ربيع الأول سنة ٩هـ . بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرساً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء ، وفي السبي أخت عدي بن حاتم ، وهرب عدي إلى الشام ، ووجد المسلمون في

---

(١) هكذا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في المحرم سنة ٩هـ . وفيه نظر ظاهر ، فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها ، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بني هوازن : أما أنا وبنو تميم فلا . وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية .

(٢) فتح الباري ٥٩/٨ .

خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفي الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفي لرسول الله ﷺ . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدي بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، غاب الوافد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بي من خدمة ، فَمُنَّ عَلَيَّ ، مَنَّ الله عليك . قال : « من وافدك » ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : « الذي فر من الله ورسوله »؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال أمس . فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فَمَنَّ عليها ، وكان إلى جنبه رجل – ترى أنه علي – فقال لها : « سليه الحملان – . فسألته ، فأمر لها به .

ورجعت أخت عدي بن حاتم إلى أخيها عدي بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغباً أو راهباً ، فجاء عدي بغير أمان ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ما يفرك ؟ أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله ؟؟ فهل تعلم من إله سوى الله »؟ قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم قال : « إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله » ؟ قال : لا . قال : « فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون » . قال: فإني حنيف مسلم . فانبسط وجهه فرحاً ، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار[1] .

وفي رواية ابن إسحاق عن عدي : أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه في داره قال له : إيه يا عدي بن حاتم ، ألم تكن ركوسيا ؟ قال : بلى . قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يحل لك في دينك . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت أنه نبي مرسل ، يعرف ما يجهل[2] .

وفي رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال : يا عدي أسلم تسلم . فقلت إني من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم ، ألست من الركوسية

---

(١) زاد المعاد ٢/٢٠٥ .

(٢) ابن هشام ٢/٥٨١ .

وأنت تأكل مرباع قومك ؟ فقلت : بلى قال : فإن هذا لا يحل لك في دينك . قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها[1] .

وروى البخاري عن عدي قال : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقه ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه ـ الحديث ـ وفي آخره : قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ « يخرج ملء كفه »[2] .

---

(١) مسند الإمام أحمد .

(٢) صحيح البخاري انظر مشكاة المصابيح ٥٢٤/٢ .

غـــزوة تبـــوك

في رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل . لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً – كما سيظهر ذلك مما تقدمه في فصـل الوفود ، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع – وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة:

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهي قوة الرومان – أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان – وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ – الحارث بن عمير الأزدي – على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني ، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى ، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداماً عنيفاً في مؤتة ، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب ، قريبهم وبعيدهم .

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليـه بعـد ذلك كثـير من قبـائل العرب من استقـلالهم عن قيصر ، ومواطأتهم للمسـلمين ، إن هذا كان خطراً يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في

صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها ، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظراً إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة ؛ حتى أخذ يهيىء الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان:

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان ، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له . ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب – وهو يروي هذه القصة – : وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر – وكانا يسكنان في عوالي المدينة ، يتناوبان إلى النبي ﷺ – ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . الحديث[1] .

وفي لفظ آخر (أنه قال) : وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال : أنائم هو ؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم . فقلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه . الحديث[2] .

وهذا يدل على خطورة الموقف . الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان . ويزيد ذلك تأكداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ في كل الميادين ، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ،

(١) صحيح البخاري ٢/٧٣٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٣٤ .

بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق ، برغم هذا كله طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق ما كانوا يخفونه في صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله . ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر ، في صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسوه كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلي فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين ، فلا يفطنوا ما يؤتى به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم في الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه – إلى قفوله من الغزوة – لشغله بالجهاز ، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله ، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدل أن يصلي فيه .

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان:

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب ، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء . وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير .

زيادة خطورة الموقف:

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال ، من الزمان الذي هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة ، والطريق وعرة صعبة .

الرسول - ﷺ - يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله . إنه كاان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة ؛ كان له أسوأ أثر

على الدعوة الإسلامية ، وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاسمة في حنين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذي يتربصون الدوائر بالمسلمين بخناجرهم من الخلف ، في حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام ، وهكذا يخفق كثير من الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة ... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيداً ، ولذلك قرر القيام – مع ما كان فيه من العسرة والشدة – بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الاعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرر رسول الله ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال ، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم ، وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، ولكنه نظراً إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان ، وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة ، وحضهم على الجهاد ، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلاد ، وتحثهم على القتال ورغبهم رسول الله ﷺ في بذل الصدقات ، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله .

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة – إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر – حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (٩ : ٩٢) .

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات . كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام ، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم »[1] ، ثم تصدق وتصدق ، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله ، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله – وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال ، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من التمر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها ؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم .

ولم يمسك أحد يده ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (٩ : ٧٩)

الجيش الاسلامي إلى تبوك:

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وقيل سباع بن عرفطة ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب ، وأمره بالإقامة فيهم ، وغمص عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله ﷺ ، فرده إلى المدينة وقال : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » .

ثم تحرك رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيراً – ثلاثون ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط – فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزاً كاملاً . بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً وربما أكلوا أوراق

---

(١) جامع الترمذي . مناقب عثمان بن عفان ٢/٢١١ .

الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا إلى ذبح البعير – مع قلتها – ليشربوا ما في كرشه من الماء ، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة .

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر – ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، أي وادي القرى– فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة . وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً » ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ؛ أن يصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين » ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي[1] .

واشتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : « إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي » . قال معاذ : فجئنا وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض بشيء من مائها ، فسألهما رسول الله ﷺ : « هل مسستما من مائها شيئاً » ؟ قالا : نعم . وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرف من العين قليلاً حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى هاهنا قد ملىء جناناً »[2] .

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك – على اختلاف الروايات – قال رسول الله ﷺ : « تهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء[3] .

---

(١) صحيح البخاري باب نزول النبي ﷺ الحجر ٦٣٧/٢ .

(٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢٤٦/٢ .

(٣) نفس المصدر .

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما .

الجيش الإسلامي بتبوك:

نزل الجيش الإسلامي بتبوك ، فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فخطب خطبة بليغة ، أتى بجوامع الكلم ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وحُلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة ، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين .

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعمائة وعشرين فارساً ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ، فأتاه خالد ، فلما كان من حصنه بمنظر العين ، خرجت البقر ، تحك بقرونها باب القصر ، فخرج أكيدر لصيدها – وكانت ليلة مقمرة – فتلقاه خالد من خيله ، فأخذه وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فحقن دمه ، وصالحه على ألفي بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء .

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات

أوانه ، فانقلبت لصالح المسلمين ، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين ، لم ينالوا كيداً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن اليمان يسوقها ، وأخذ الناس ببطن الوادي ، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة . فبينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة . القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم ملثمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه ، فأرعبهم الله ، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم ، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم ، وبما هموا به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ .

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال : هذه طلة ، وهذا أحد ، جبل يحبنا ونحبه ، وتسامع الناس بمقدمه ، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن[1] :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وكان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً . أقام منها عشرين يوماً في تبوك . والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوباً . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ .

المخلفون:

وكانت هذه الغزوة – لظروفها الخاصة بها – اختباراً شديداً من الله تعالى ، امتاز به المؤمنون من غيرهم . كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ

(١) هذا رأي ابن القيم وقد مضى البحث عليه في ص١٧٢ .

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ (٣ : ١٧٩) فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادقاً ، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم : دعوه ، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه ، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذباً ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأساً . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر . وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فأما المنافقون – وهم بضعة وثمانون رجلاً[1] – فجاؤوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار ، وطفقوا يحلفون له ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين – وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية – فاختاروا الصدق ، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة ، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تنكرت لهم الأرض ، وضاقت عليهم بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (٩ : ١١٨) .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه وغايته ، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ،الآيتين (٩:٩١)

(١) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار ، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكانوا عدداً كثيراً (انظر فتح الباري ١١٩/٨) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة .

أثر الغزوة:

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان ، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع ، الذي لم يجدوا عنه محيداً ولا مناصاً .

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقاتهم ، وعن الصلاة عليهم ، والاستغفار لهم ، والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التي بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحاً تاماً ، لم يبق في معرفتهم بعدها أي خفاء ، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة ؛ بل وما قبلها ، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة[1] .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج – وهو في السفر – وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٥١٥ إلى ٥٣٧ ، وزاد المعاد ٣/٢ إلى ١٣ وصحيح البخاري ٢/٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ و ١/٢٥٢ ، ٤١٤ وغيرها وصحيح مسلم مع شرحه للنووي ٢/٢٤٦ . وفتح الباري ٨/١١٠ إلى ١٢٦ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من ص٣٩١ إلى ٤٠٧ .

ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين والمخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

بعض الوقائع المهمة في هذه السنة:

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ :

(١) بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلاني وامرأته .

(٢) رجمت المرأة الغامدية التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة ، رجمت بعد ما فطمت ابنها .

(٣) توفي النجاشي أصحمة ، ملك الحبشة ، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب .

(٤) توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وقال لعثمان : « لو كانت عندي ثالثة لزوجتكها » .

(٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، فاستغفر له رسول الله ﷺ ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر .

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج ؛ ليقيم بالمسلمين المناسك .

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء ، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك ، وذلك تمشياً منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال ، فالتقى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال علي : لا ، بل مأمور ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ . ونبذ إلى كل ذي عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ، فأبقى عهدهم إلى مدتهم .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالاً ينادون في الناس : ألا لايحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب ، وأنها لا تبدىء ولا تعيد بعد هذا العام[1] .

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٢٠ ، ٤٥١ ، ٢/٦٢٦ ، ٦٧١ ، زاد المعاد ٣/٢٥ ، ٢٦ ، ابن هشام ٢/٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه ؛ لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها – لا يمكن لنا إلا أن نقول : إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا ، وأسدهم وأعمقهم فراسة وتيقظاً ، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف ، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة ، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير ، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلطة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش ، وتعيينه على المراكز الاستراتيجية ، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة ، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال ، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ما عرفتها وتعرف الدنيا في القواد . ولم يقع ما وقع في أحد وحنين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش – في حنين – أو من جهة معصيتهم أوامره ، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية .

وقد تجلت عبقريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين ، فقد ثبت مجابها للعدو ، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم – كما فعل في أحد – أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً – كما في حنين – مع أن مثل هذا التطور الخطير ، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد ، وتتركان على أعصابهم أسوأ الأثر ، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم .

هذه هي من ناحية القيادة العسكرية الخالصة . أما من نواح أخرى ، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام ، وإطفاء نار الفتنة ، وكسر شوكة الأعداء في صراع

الإسلام والوثنية ، وإلجائهم إلى المصالحة ، وتخلية السبيل لنشر الدعوة ، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق ، ويضمر نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال ، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات ، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين ، حتى تفصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار ، وهيأ السلاح والكراع والعدة والنفقات ، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان ، وأخذ الثأر ، والفوز بالوتر ، وكبت الضعيف ، وتخريب العمران ، وتدمير البنيان ، وهتك حرمات النساء ، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل ، والعبث والفساد في الأرض – في الجاهلية – إذ صارت هذه الحرب – في الإسلام – جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة ، وأغراض سامية وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ، فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان . إن نظام العدالة والنصف ، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف ، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه ، وصارت جهاداً في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً . واجعل لنا من لدنك نصيراً ، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر الله ، اغزوا ، فلا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا

وليداً .. الحديث . وكان يأمر بالتيسير ويقول : يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا[1] . وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح ، ونهى أشد النهي عن التحريق في النار ، ونهى عن قتل الصبية ، وقتل النساء وضربهن ، ونهى عن النهب حتى قال : إن النهبى ليست بأحل من الميتة . ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولا يبقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : لا تجهزن على جريح ، ولا تتبعن مدبراً ، ولا تقتلن أسيراً ، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل ، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً ... إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية ، حتى جعلتها جهاداً مقدساً[2] .

---

(١) صحيح مسلم ٢/٨٢ ، ٨٣ .

(٢) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعاد ٢/٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والجهاد في الإسلام للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص٢١٦ إلى ٢٦٢ .

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة – كما قلنا – معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتاً ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كنا بماء ممر الناس ، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ – أي النبي ﷺ – فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه . أوحى الله كذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، فكأنما يقرأ في صدري ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند النبي – ﷺ – حقاً . فقال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآناً . الحديث[1] .

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكد ذلك أي تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين – التاسع والعاشر – ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح ، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك ، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى في حجة الوداع بحراً من رجال الإسلام – مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفاً منهم – يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوي له الآفاق ، وترتج له الأرجاء .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٦١٥ ، ٦١٦

الوفود:

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفداً ، ولا يمكن لنا استقصاءها ، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالاً ماله روعة أو أهمية في التاريخ . وليكن على ذكر من القارىء أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ؛ ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضا :

(١) وفد عبد القيس – كانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان ، يرد المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة .

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدي ، وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه[1] .

(٢) وفد دوس – كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخيبر ، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة ، ثم رجع إلى قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويبطئون عليه ، حتى يئس منهم ، ورجع إلى رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : اللهم اهد دوساً . ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به .

(٣) رسول فروة بني عمرو الجذامي – كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان ، عاملاً لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعدما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ. ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٣٣/١ ، فتح الباري ٨٥/٨ ، ٨٦ .

فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء ، وضربوا عنقه[1] .

(٤) وفد صداء – جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨هـ . وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثاً من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء ، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتك وافداً على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوهم ، ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع .

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى – كان من بيت الشعراء ، ومن أشعر العرب ، وكان يهجو النبي ﷺ ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨هـ ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً ، وإلا فانج إلى نجاتك . ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل في جهينة ، وصلى معه الصبح ، فلما انصرف أشار عليه الجهني ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال : يا رسول الله . إن كعب بن زهير ، قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال : « نعم » . قال : أنا كعب بن زهير . فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه ، فقال : « دعه عنك ، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه » .

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها ، لم يفد ، مكبول

قال فيها – وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويمدحه – :

---

(١) زاد المعاد ٣/٤٥ ، تفهيم القرآن ٢/١٦٩ .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها، لم يفد، مكبول
نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلةالـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب، ولو كثرت فيَّ الأقاويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد، إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يميني ما أنازعه في كف ذي نقمات قيله القيل
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه وقيل : إنك منسوب ومسؤول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره في بطن عثر غيل دونه غيل
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش ؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا بخير ، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه ، قال :

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له ، وتدارك ما كان قد فرط منه في شأنهم ، قال في تلك القصيدة :

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحي الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

(٦) وفد عذرة – قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩هـ . هم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن النعمان . قال متكلمهم حين سئلوا من القوم : نحن بنو عذرة ، أخوة قصي لأمه ، نحن الذين عضدوا قصياً ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم النبي ﷺ ، وبشرهم بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها . أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا .

(٧) وفد بلي – قدم في ربيع الأول سنة ٩هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثاً ، وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة» ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : « ثلاثة أيام » ، وسأل عن ضالة

الغنم فقال : « هي لك أو لأخيك أو للذئب » ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : « مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه » .

(٨) وفد ثقيف – كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩هـ . بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك . وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨هـ قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم عروة ، ورجع إلى قومه ، ودعاهم إلى الإسلام – وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيداً مطاعاً في قومه ، وكان أحب إليهم من أبكارهم – فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه ، ثم أقاموا بعد قتله أشهراً ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب – الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا – فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا عليه ذلك فأبى ، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة ، وقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وكان أحدثهم سناً .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد ، لكي يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ ، وهو يدعوهم إلى الإسلام ، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف. يأذن لهم فيها بالزنى وشرب الخمور وأكل الربا ، ويترك لهم طاغيتهم اللات ، وأن يعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك ، فخلوا وتشاوروا ، فلم يجدوا محيصاً عن الاستسلام لرسول الله ﷺ ، فاستسلموا وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات ، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبداً ؛ فقبل ذلك ، وكتب لهم كتاباً ، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ، لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن ؛ وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهم ، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ ، فاستقرأه القرآن ، وسأله عن الدين ، وإذا وجده نائماً عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض ، (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة ، فإن ثقيفاً لما عزمت على الردة قال

لهم : يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً ، فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا على الردة ، وثبتوا على الإسلام) .

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنى والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيف نخوة الجاهلية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل ، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً لهدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ، فقام المغيرة بن شعبة ، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، فوثب المغيرة فقال : قبحكم الله ، إنما هي لكاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها ، وأخرجوا حليها ولباسها ، فبهتت ثقيف ، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه[1] .

(٩) رسالة ملوك اليمن – وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان بن قيل ذي رعين ، وهمدان ومعافر ، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية ، وبعث إليهم رجالاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل .

(١٠) وفد همدان – قدموا سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث علي بن أبي طالب ، وأمره أن يقفل خالداً ، فجاء علي إلى همدان ، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً ، وكتب علي ببشارة

(١) زاد المعاد ٣/٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ابن هشام ٣/٥٣٧ إلى ٥٤٢ .

إسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

(١١) وفد بني فزازة – قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم في بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام ، وشكوا جدب بلادهم ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، فرفع يديه واستسقى ، وقال : اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحي بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثاً ، مغيثاً ، مريحاً ، مريعاً ، طبقاً ، واسعاً ، عاجلاً ، غير آجل ، نافعاً غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ، ولا غرق ، ولا محق ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء[1] .

(١٢) وفد نجران – (نجران ، بفتح النون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، مسيرة يوم للراكب السريع[2] ، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية) .

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ ، وقوام الوفد ستون رجلاً ، منهم أربعة وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران ، أحدهم العاقب ، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح ، والثاني السيد ، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل ، والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية . والقيادة الروحانية ، واسمه أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة ، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام ، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٣ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) .

---

(١) زاد المعاد ٣/٤٨ .

(٢) فتح الباري ٨/٩٤ .

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة ، وتركهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا في أمرهم ، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى . فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى ، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له ، وفاطمة تمشي عند ظهره ، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا ، فقال كل من العاقب والسيد للآخر : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم ، فجاؤوا وقالوا : إنا نعطيك ما سألتنا . فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم على ألفي حلة ، ألف في رجب ، وألف في صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً ، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ؛ ليقبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران ، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين[1] .

(١٣) وفد بني حنيفة – كانت وفادتهم سنة ٩هـ . وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب[2] – وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة – نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار ، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبي ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ، فلما رأى أن ذلك لا يجدي فيه نفعاً تفرس فيه الشر .

---

(١) فتح الباري ٩٤/٨ ، ٩٥ ، زاد المعاد ٣٨/٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية وفد نجران ، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين ، وقد ذكرنا – ملخصاً – ما ترجح عندنا في هذا الوفد .

(٢) فتح الباري ٨٧/٨ .

وكان النبي ﷺ قد أُرِيَ قبل ذلك في المنام أنه أتي بخزائن الأرض ، فوقع في يديه سواران من ذهب ، فكبرا عليه وأهماه ، فأوحى إليه أن انفخهما ، فنفخهما ، فذهبا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف – وقد كان يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته – جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه ، فكلمه فقال له مسيلمة : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال : لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، والله إني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عني . ثم انصرف[1] .

وأخيراً وقع ما تفرس فيه النبي ﷺ ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكر في أمره ، حتى ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، وأحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي ، وافتتن به قومه فتبعوه ، وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم . وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه : إني أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقريش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

وعن ابن مسعود قال : جاء ابن النواحة ، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ ، فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبي ﷺ : آمنت بالله ورسوله . لو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكما[3] .

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢هـ، قتله وحشي قاتل حمزة . وأما المتنبيء الثاني ، وهو الأسود

---

(١) انظر صحيح البخاري باب وفد بني حنيفة ، وباب قصة الأسود العنسي ٦٢٧/٢ ، ٦٢٨ وفيتح الباري ٨٧/٨ إلى ٩٣ .

(٢) زاد المعاد ٣١/٣ ، ٣٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصابيح ٣٤٧/٢ .

العنسي الذي كان باليمن ، فقتله فيروز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة ، فأتاه الوحي فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه[1] .

(١٤) وفد بني عامر بن صعصعة – كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس – أخو لبيد لأمه – وخالد بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد ، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ ، ودار أربد خلفه ، واخترط سيفه شبراً ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نبيه ، ودعا عليهما النبي ﷺ ، فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته ، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية ، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتاً في بيت السلولية .

وفي صحيح البخاري : أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن في بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، في بيت امرأة من بني فلان ، إيتوني بفرسي . فركب ، فمات على فرسه .

(١٥) وفد تجيب – قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم وكان الوفد ثلاثة عشر رجلاً ، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللبث ، ولما أجازهم رسول لله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحالهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غناي في قلبي ، فدعا له بذلك ، فكان أقنع الناس ، وثبت في الردة على الإسلام ، وذكر قومه ؛ ووعظهم فثبتوا عليه ، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠هـ .

(١٦) وفد طيء – قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبي ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زيد : « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه » ، وسماه زيد الخير .

* * *

(١) فتح الباري ٨/٩٣ .

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبني سعد هذيم من قضاعة ، وبني عامر بن قيس ، وبني أسد ، وبهراء ، وخولان ، ومحارب ، وبني الحارث بن كعب ، وغامد ، وبني المنتفق ، وسلامان ، وبني عبس ، ومزينة ، ومراد ، وزبيد ، وكندة ، وذي مرة ، وغسان ، وبني عيش ، ونخع – وهو آخر الوفود ، توافد في منتصف محرم سنة ١١هـ في مائتي رجل – وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩ و ١٠هـ ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام ، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ، حتى لم تكن ترى محيصاً عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء باسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب ، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٩ : ٩٧ ، ٩٨) وأثنى على آخرين منهم قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٩ : ٩٩) .

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحرين ؛ فقد كان الإسلام فيهم قوياً ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين[1] .

---

(١) كلمة للخضري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١٤٤/١ . وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها ، صحيح البخاري ١٣/١ ، ٦٢٦/٢ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ . وابن هشام ٥٠١/٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ إلى ٦٠١ ، وزاد المعاد ٢٦/٣ إلى ٦٠ ، وفتح الباري ٨٣/٨ إلى ١٠٣ ورحمة للعالمين ١٨٤/١ إلى ٢١٧ .

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ ؛ ينبغي لنا أن نلقي نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي هو فذلكة حياته ، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين ، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين .

إنه ﷺ قيل له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الآيات . و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ الآيات ، فقام ، وظل قائماً أكثر من عشرين عاماً ، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها ، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها ، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية ، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة .. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها ، وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جذورها في التربة ، وفروعها في الفضاء ، وتظل مساحات أخرى .. ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية ؛ حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة ، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى – معركة الضمير – قد انتهت ، فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لاينى لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني ، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ، في شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكد ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن

والراحة ؛ في نصب دائم لا ينقطع ، وفي صبر جميل على هذا كله ، وفي قيام الليل ، وفي عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه ، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل[1] .

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً ، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد ، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له العقول ، فقد دانت لها الجزيرة العربية ، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها ، وَصَحَّت العقول العليلة ، حتى تركت الأصنام ؛ بل كسرت ، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد ، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد ، وانطلق القراء شمالاً وجنوباً ، يتلون آيات الكتاب ، ويقيمون أحكام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة ، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله ، فليس هناك قاهر ومقهور ، وسادات وعبيد ، وحكام ومحكومون ، وظالم ومظلوم ، وإنما الناس كلهم عباد الله ، إخوان متحابون ، متمثلون لأحكامه : أذهب الله عنهم عُبِّيَّة الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء ، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب .

وهكذا تحققت – بفضل هذه الدعوة – الوحدة العربية ، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية ، وفي مسائلها الأخروية ، فتقلب مجرى الأيام ، وتغير وجه الأرض ، وانعدل خط التاريخ ، وتبدلت العقلية .

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية – قبل الدعوة – ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التي كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح .

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية ؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ، وخلصت المجتمع الإنساني

---

(١) كلمة سيد قطب في ظلال القرآن ١٦٨/٢٩ ، ١٦٩ .

من الظـلم والطغيـان ، ومن التفكك والانهيـار ، ومن فوارق الطبقـات ، واستبداد الحكـام ، واستذلال الكهان ، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة ، والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب ؛ لتنمية الحياة ، وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة[1] .

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران ، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

---

(١) من كلمة سيد قطب في مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٤ .

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله ، ونفيها عن غيره ، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ ، وكأن هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث معاذاً على اليمن سنة ١٠هـ قال له فيما قال : يا معاذ ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري ، فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ .

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته ، التي عانى في سبيلها ألواناً من المتاعب بضعاً وعشرين عاماً ، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها ، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه ، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة .

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ[1] . وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل[2] ، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه ، وانطلق بعد الظهر ، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر ، فصلاها ركعتين ، وبات هناك حتى أصبح ، فلما أصبح قال لأصحابه : أتاني الليلة آت من ربي فقال : صل في هذا الوادي المبارك ، وقل : عمرة في حجة[3] .

---

(١) روى ذلك مسلم عن جابر ، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٤ .

(٢) حقق ذلك ابن حجر تحقيقاً أنيقاً ، مع تصحيح ما ورد من أنه خرج لخمس بقين من ذي العقدة انظر فتح الباري ٨/١٠٤ .

(٣) رواه البخاري عن عمر ١/٢٠٧ .

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك ، في بدنه ورأسه ، حتى كان وبيص الطيب يرى في مفارقه ولحيته ، ثم استدامه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه ، وقرن بينهما ، ثم خرج ، فركب القصواء ، فأهل أيضاً ، ثم أهل لما استقلت به على البيداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذي طوى ، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠هـ – وقد قضى في الطريق ثمان ليال ، وهي المسافة الوسطى – فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، ولم يحل ، لأنه كان قارناً قد ساق معه الهدي ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون ، وأقام هناك ، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج

وأمر من لم يكن معه هدي في أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ثم يحلوا حلالاً تاماً ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معي الهدي لأحللت ، فحل من لم يكن معه هدي ، وسمعوا وأطاعوا .

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة – وهو يوم التروية – توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر – خمس صلوات – ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي ، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس ، فقام فيهم خطيباً ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :

« أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً[1] .

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث – وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل – وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

---

(١) ابن هشام ٢/٦٠٣ .

فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله[1] .

أيها الناس ، إنه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجون بيت ربكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم[2] .

وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون » ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس « اللهم اشهد » . ثلاث مرات[3] .

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ – وهو بعرفة – ربيعة بن أمية بن خلف[4] .

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٥ : ٣) وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[5] .

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص ، وأردف أسامة ، ودفع حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها

---

(١) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧ .

(٢) معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجه وابن عساكر ، رحمة للعالمين ١/٢٦٣ .

(٣) مسلم ١/٣٩٧ .

(٤) ابن هشام ٢/٦٠٥ .

(٥) رواه البخاري عن ابن عمر ... انظر رحمة للعالمين ١/٢٦٥ .

المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وهلله ، ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً .

فدفع – من المزدلفة إلى منى – قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلاً ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة – وهي الجمرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى – فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر – وهي سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة – وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : « انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم » ، فناولوه دلواً فشرب منه[1] .

وخطب النبي ﷺ يوم النحر – عاشر ذي الحجة – أيضاً حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلي يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد[2] . وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أي شهر هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة» ؟ قلنا : بلى . قال : « أي بلد هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليست البلدة » ؟ قلنا : بلى . قال : « فأي

---

(١) رواه مسلم عن جابر ، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أي وقت يخطب يوم النحر ١/٢٧٠ .

يوم هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس يوم النحر » ؟ قلنا : بلى . قال : « فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » .

« وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« ألا هل بلغت » ؟ قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع »[1] .

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة : « ألا لا يجني جان إلا على نفسه ، ألا لا يجني جان على ولده ، ولا مولود على والده ، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم ، فسيرضى به »[2] .

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها ، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً ، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت : خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرؤوس ، فقال : « أليس هذا أوسط أيام التشريق »[3] . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

وفي يوم النفر الثاني – الثالث عشر من ذي الحجة – نفر النبي ﷺ من منى ، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح ، وأقام هناك بقية يومه ذلك ، وليلته ، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة ، ثم ركب إلى البيت ، فطاف به طواف الوداع ، وكان قد أمر الصحابة أيضاً .

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة ، لا ليأخذ حظاً من الراحة ، بل

---

(١) صحيح البخاري ، باب الخطبة أيام منى ١/٢٣٤ .

(٢) رواه الترمذي ٢/٣٨ ، ١٣٥ وابن ماجة في الحج ، مشكاة المصابيح ١/٢٣٤ .

(٣) أبو داود . باب أي يوم يخطب بمنى ١/٢٦٩ .

ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله[1] .

أخر البعوث:

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه ، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان والياً على معان من قبل الروم .

ونظراً إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبغي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب .

وتكلم الناس في قائد الجيش لحداثة سنه ، واستبطأوا في بعثه ، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إليّ ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده[2] .

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة ، وينتظمون في جيشه ، حتى خرجوا ونزلوا الجرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث ، حتى يعرفوا ما يقضي الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق[3] .

---

(١) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري كتاب المناسك ج١ و٢/٦٣١ وصحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ وفتح الباري ج٣ من شرح كتاب المناسك وج٨/١٠٣ إلى ١١٠ وابن هشام ٢/٦٠١ إلى ٦٠٥ ، زاد المعاد ١/١٩٦ ، ٢١٨ إلى ٢٤٠ .

(٢) صحيح البخاري . باب بعث النبي ﷺ أسامة ٢/٦١٢ .

(٣) المصدر السابق وابن هشام ٢/٦٠٦ ، ٥٦٠ .

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع:

لما تكاملت الدعوة ، وسيطر الإسلام على الموقف ، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ ، وتتضح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً ، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب ، وتدارسه جبريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، وقال وهو عند جمرة العقبة : خذوا عني مناسككم ، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، وأنه نعيت إليه نفسه .

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد ، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرطكم ، وإني شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي ، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها[1] .

وخرج ليلة – في منتصفها – إلى البقيع فاستغفر لهم ، وقال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . وبشرهم قائلاً : إنا بكم للاحقون .

بداية المرض:

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ – وكان يوم الإثنين – شهد

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ٢/٥٨٥ .

رسول الله ﷺ جنازة في البقيع ، فلما رجع – وهو في الطريق – أخذه صداع في رأسه ، واتقدت الحرارة ، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه .

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يوماً ، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوماً .

الأسبوع الأخير:

وثقل برسول الله ﷺ المرض ، فجعل يسأل أزواجه : أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ ففهمن مراده ، فأذن له يكون حيث شاء ، فانتقل إلى عائشة ، يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب ، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها ، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته .

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ ، فكانت تنفث على نفسه ، وتمسحه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام:

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة ، اتقدت حرارة العلة في بدنه ، فاشتد به الوجع وغمي ، فقال : هريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم ، فأقعدوه في مخضب ، وصبوا عليه الماء ، حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » .

وعند ذلك أحس بخفة ، فدخل المسجد – وهو معصوب الرأس – حتى جلس على المنبر ، وخطب الناس – والناس مجتمعون حوله – فقال :

« لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » – وفي رواية « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[1] – وقال : لا تتخذوا قبري وثنا يعبد »[2] .

وعرض نفسه للقصاص قائلا : « من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه » .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها ،

(١) صحيح البخاري ٦٢/١ ، موطأ الإمام مالك ص٣٦٠ .

(٢) موطأ الإمام مالك ص٦٥ .

فقال رجل : إن لي عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يا فضل ، ثم أوصى بالأنصار قائلاً :

« أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشي وعيبتي ، وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » وفي رواية أنه قال : « إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار ، حتى يكونوا كالملح في الطعام ، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »[1] .

ثم قال : « إن عبداً خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » قال أبو سعيد الخدري : فبكى أبو بكر . قال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا[2] .

ثم قال رسول الله ﷺ : « إن أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبي بكر »[3] .

قبل أربعة أيام:

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال – وقد اشتد به الوجع – : « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » – وفي البيت رجال فيهم عمر – فقال عمر : قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبكم كتاب الله . فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ : « قوموا عني »[4] .

وأوصى ذلك اليوم بثلاث : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب ،

---

(١) صحيح البخاري ٥٣٦/١ .

(٢) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٥٤٦/٢ .

(٣) متفق عليه . مشكاة المصابيح ٥٤٨/٢ ، صحيح البخاري ٢٢/١ ، ٤٢٩ ، ٤٤٩ ، ٦٣٨/٢ .

(٤) رواه البخاري عن أم الفضل باب مرض النبي ﷺ ٦٣٧/٢ .

وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم ، أما الثالث فنسيه الراوي ، ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة ، أو تنفيذ جيش أسامة ، أو هي « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم – يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام – وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب ، فقرأ فيها بالمرسلات عرفا[1] .

وعند العشاء زاد ثقل المرض ، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد . قالت عائشة : فقال النبي ﷺ : « أصلى الناس » ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، وهم ينتظرونك . قال : « ضعوا لي ماء في المخضب » . ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : « أصلى الناس » ؟ – ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء – فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس ، فصلى أبو بكر تلك الأيام[2] ؛ ١٧ صلاة في حياته ﷺ .

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر ، حتى لا يتشاءم به الناس ، فأبى ، وقال : « إنكن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

قبل يوم أو يومين:

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة ، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه بأن لا يتأخر ، قال : « أجلساني إلى جنبه ، فأجلساه إلى يسار أبي بكر ، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ، ويسمع الناس التكبير[3] .

قبل يوم:

وقبل يوم من الوفاة – يوم الأحد – أعتق النبي ﷺ غلمانه ، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب للمسلمين أسلحته ، وفي الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها ،

(١) متفق عليه مشكاة المصابيح ١٠٢/١ .

(٢) صحيح البخاري ٩٩/١ .

(٣) صحيح البخاري ٩٨/١ ، ٩٩ .

وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير .

أخر يوم من الحياة:

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر يوم الإثنين – وأبو بكر يصلي بهم – لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة ، فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم ، فرحاً برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[1] .

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى .

ولما ارتفع الضحى ، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت . ثم دعاها ، فسارها بشيء فضحكت ، قالت عائشة ، فسألنا عن ذلك – أي فيما بعد – فقالت : سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه ، فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت[2] .

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين[3] .

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه ، فقالت : واكرب أباه . فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم »[4] .

ودعا الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيراً ، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن .

وطفق الوجع يشتد ويزيد ، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر حتى كان يقول : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من

---

(١) نفس المصدر ، باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٣٨ .

(٣) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته بل في آخر أسبوع . رحمة للعالمين ١/٢٨٢ .

(٤) صحيح البخاري ٢/٦٤١ .

ذلك السم »[1] .

وأوصى الناس ، فقال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، كرر ذلك مراراً[2] .

الاحتضار:

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها ، وكانت تقول : إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته . دخل عبد الرحمن – بن أبي بكر – وبيده السواك ، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته . فأمره – وفي رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستناً – وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات » – الحديث –[3] .

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتاه ، فأصغت إليه عائشة وهو يقول : « مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفر لي وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى »[4] .

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ . وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام .

تفاقم الأحزان على الصحابة:

وتسرب النبأ الفادح ، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : ما رأيت يوماً قط

---

(١) نفس المصدر ٢/٦٣٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) صحيح البخاري . باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠ .

(٤) نفس المصدر والباب ، وباب آخر ما تكلم النبي ﷺ ٢/٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ .

كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ[1] .

ولما مات قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربا دعاه . يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه . يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه[2] .

موقف عمر:

ووقف عمر بن الخطاب – وقد أخرجه الخبر عن وعيه – يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات .

والله ليرجعن رسول الله ﷺ ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات[3] .

موقف أبي بكر:

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ ، وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه ، فقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متَّها .

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر . فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت . قال الله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٣ : ١٤٤) قال ابن عباس : والله لكأن

---

(١) رواه الدارمي . مشكاة المصابيح ٥٤٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٦٤١/٢ .

(٣) ابن هشام ٦٥٥/٢ .

الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات[1] .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض:

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وأخيراً اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل ، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ ، حتى كان آخر الليل – ليلة الثلاثاء – مع الصبح ، وبقي جسده المبارك على فراشه ، مغشى بثوب حبرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه ، وكان القائمون بالغسل العباس وعلياً ، والفضل وقثم ابني العباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأسامة بن زيد ، وأوس بن خولي . فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، وعلي يغسله ، وأوس أسنده إلى صدره .

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامة[2] . أدرجوه فيها إدراجاً .

واختلفوا في موضع دفنه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع أبو طلحة فراشه الذي تُوُفي عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحداً .

ودخل الناس الحجرة أرسالاً عشرة فعشرة ، يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد ، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، وصلت عليه النساء بعد الرجال ، ثم صلى عليه الصبيان .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٦٤٠ ، ٦٤١ .

(٢) متفق عليه ، صحيح البخاري ١/١٦٩ ، صحيح مسلم ١/٣٠٦ .

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً ، حتى دخلت ليلة الأربعاء ، قالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء[1] .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٤٧١ ، وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى : صحيح البخاري ، باب مرض النبي ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح الباري وصحيح مسلم ومشكاة المصابيح باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٦٤٩/٢ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٣٨ ، ٣٩ ورحمة للعالمين ٢٧٧/١ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المصدر الأخير .

البيت النبوي

(١) كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد ، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه ، وهي في الأربعين ، وهي أول من تزوجها من النساء ، ولم يتزوج عليها غيرها ، وكان له منها أبناء وبنات ، أما الأبناء ، فلم يعش منهم أحد ، وأما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى ، وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب بين بدر وأحد ، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم .

ومعلوم أن النبي ﷺ كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة ، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة ، منهن تسع مات عنهن ، واثنتان توفيتا في حياته ، إحداهما خديجة ، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة ، واثنتان لم يدخل بهما . وهاهي أسماؤهن وشيء عنهن .

(٢) سودة بنت زمعة ، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة خديجة بأيام ، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ، فمات عنها .

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق ، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة ، بعد زواجه بسودة بسنة ، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر ، تزوجها وهي بنت ست سنين ، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة ، وهي بنت تسع سنين ، وكانت بكراً ولم يتزوج بكراً غيرها ، وكانت أحب الخلق إليه ، وأفقه نساء الأمة ، وأعلمهن على الإطلاق .

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣هـ .

(٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، فاستشهد في أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤هـ . ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر .

(٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية ، كانت تحت أبي سلمة ، فمات عنها في جمادى الأخرى سنة ٤هـ ، فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة .

(٧) زينب بنت جحش بن رياب من بني أسد بن خزيمة ، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ ، وكانت تحت زيد بن حارثة – الذي كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ – فطلقها زيد ، فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني – وسنأتي على ذكرها – تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة ، كانت في سبي بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها في شعبان سنة ٦هـ .

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، كانت تحت عبيد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتد عبيد الله وتنصر ، وتوفي هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة .

(١٠) صفية بنت حيي بن أخطب من بني إسرائيل ، كانت من سبي خيبر ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ .

(١١) ميمونة بنت الحارث ، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث ، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧هـ ، في عمرة القضاء ، بعد أن حل منها على الصحيح .

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان – خديجة وزينب أم المساكين – في حياته ، وتوفي هو عن التسع البواقي .

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما ، فواحدة من بني كلاب ، وأخرى من كندة ، وهي المعروفة بالجونية ، وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها .

وأما السراري فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية ، أهداها له المقوقس ، فأولدها ابنه إبراهيم ، الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ ، في ٢٨/ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م . والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية ، كانت من سبايا قريظة ، فاصطفاها لنفسه ، وقيل : بل هي من أزواجه ﷺ ، أعتقها فتزوجها . والقول الأول رجحه ابن القيم . وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين ، جميلة أصابها في بعض السبي ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش[1] .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيداً أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاماً من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصراً على زوجة واحدة شبه عجوز – خديجة ثم سودة – عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة في نفسه قوة عارمة من الشبق ، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء ؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذي يحققه عامة الزواج .

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة – وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب ، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان – يشير إلى أنه يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة ، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به ، وشاء الله أن يجتازها بسلام .

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ، فقد كان الصهر عندهم باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعاراً على أنفسهم ، فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام ، ويطفىء حدة بغضائها ، كانت أم سلمة من بني مخزوم – حي أبي جهل وخالد بن الوليد – فلما تزوجها

---

(١) انظر زاد المعاد ١/٢٩ .

رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعاً راغباً ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة ، وكذلك لا نرى من قبيلتي بني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية ؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ . ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس .

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبي ﷺ كان مأموراً بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئاً من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدنية ، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه .

والمبادىء التي كانت أسساً لبناء المجتمع الإسلامي ، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادىء ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفي لهذا الغرض ، فيزكيهن ويربيهن ، ويعلمهن الشرائع والأحكام ، ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن ؛ لتربية البدويات والحضريات ، العجائز منهن والشابات ، فيكفين مؤنة التبليغ في النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله - ﷺ - المنزلية للناس ، خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة ، فإنها روت كثيراً من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متأصل ، وهي قاعدة التبني ، وكان للمتبنى عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء . وكانت قد تأصلت تلك القاعدة في القلوب ، بحيث لم يكن محوها سهلاً ، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادىء التي قررها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيراً من المفاسد والفواحش التي جاء الإسلام ؛ ليمحوها عن المجتمع .

ولهدم تلك القاعدة أمر الله تعالى رسول ﷺ أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ،

وكانت تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق ، حتى هم زيد بطلاقها ، وذلك في ساعة تألب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود ، وما يكون له من الأثر السيء في نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب أن لا يطلق زيد ؛ حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذا الامتحان .

ولا شك أن هذا التردد والانحياز كان لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ ، فعاتبه الله على ذلك وقال : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (٣٣ : ٣٧) .

وأخيراً طلقها زيد ، وتزوجها رسول الله ﷺ في أيام فرض الحصار على بني قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ، ولم يترك له خياراً ولا مجالاً ، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (٣٣ : ٣٧) وذلك ليهدم قاعدة التبني فعلا كما هدمها قولاً : ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (٣٣ : ٥) . ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (٣٣ : ٤٠) .

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول ، بل لا بد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة ، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية ، كان هناك أولئك المسلمون الذين رآهم عروة بن مسعود الثقفي ، لا يقع من النبي ﷺ نخامة إلا في يد أحدهم ، ورآهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه ، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة ، والذين كانوا فيهم مثل أبو بكر وعمر ، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته – بعد عقد الصلح – أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقم لامتثال أمره أحد ، حتى أخذه القلق والاضطراب ، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر ، ولا يكلم أحداً ففعل ، تبادر الصحابة إلى اتباعه في فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جلياً ما هو الفرق بين أثري القول والفعل لهدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة ، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين ، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ ، ولم يكن يعرف

المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة ، وأن زيداً كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش ، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى ، وعلم الصحابة أن التبني ليس له أثره في الإسلام ، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره ، لأغراضه النبيلة الممتازة .

هذا ، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن ، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج ، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد . قال أنس : ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط[1] . وقالت عائشة : إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار . فقال لها عروة : ما كان يُعيشُكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء[2] . والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة – حسب مقتضى البشرية ، وليكون سبباً لتشريع الأحكام – فأنزل الله آية التخيير ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٣ : ٢٨ ، ٢٩) وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر مع كثرتهن إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى ، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إلى تمام الآية الخامسة .

وأخيراً أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات ، فمن نظر في حياة سكان أوربا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى ما يقاسون من الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البلايا والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .

(١) صحيح البخاري ٢/٩٥٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الصفات والأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز من كمال خَلْقه وكمل خُلُقه بما لا يحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره ، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام ، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر ، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر – وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق:

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ – وهي تصفه لزوجها ، حين مر بخيمتها مهاجراً –: ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجْلةَ ، ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم ، في عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل ، وفي عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ، ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن ، ربعة ، لا تقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند[1] .

وقال علي بن أبي طالب – وهو ينعت رسول الله ﷺ – : لم يكن بالطويل المُمغَّط ، ولا القصير المتردد ، وكان رَبْعة من القوم ، ولم يكن بالجَعْد القَطِطِ ، ولا بالسَّبَطِ ، وكان جَعْدا

(١) زاد المعاد ٢/٤٥ . **الثجلة** : ضخامة البدن . **الصعلة** : صغر الرأس . **وسيم قسيم** : حسن جميل . **الدعج** : سواد العين . **وفي أشفاره وطف** : في شعر أجفانه طول . **صحل** : بحة وخشونة . **سطع** : طول . **أزج** : الحاجب الرقيق في الطول . **لا نزر ولا هذر** : أي وسط لا قليل ولا كثير . **محفود** : الذي يخدمه أصحابه =

رَجِلا ، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا بالمُكَلْثَم ، وكان في الوجه تَدْوير ، وكان أبيضَ مشربا ، أدْعَجَ العينين ، أهْدَب الأشْفَار ، جَلِيلَ المُشَاشِ والكَتَد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شَثْنَ الكفين والقدمين ، إذا مشى تَقَلَّع كأنما يمشي في صَبَب ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، ﷺ[1] .

وفي رواية عنه : أنه كان ضخم الرأس ، ضخم الكراديس ، طويل المسربة ، إذا مشى تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب[2] .

وقال جابر بن سمرة : كان ضليع الفم ، أشكل العين ، مَنْهُوس العقبين[3] .

وقال أبو الطفيل : كان أبيض ، مليح الوجه ، مقصداً[4] .

وقال أنس بن مالك : كان بسط الكفين . وقال : كان أزهر اللون ، ليس بأبيض أمهق ، ولا آدم ، قبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء[5] .

= ويعظمونه ويسرعون في طاعته . **المحشود** : الذي يجتمع إليه الناس . **ولا مفندا** : لا يفند أحداً أي يهجنه ويستقل عقله بل جميل المعاشرة حسن الصحبة ، صاحبه كريم عليه .

(١) ابن هشام ٤٠١/١ ، ٤٠٢ ، وجامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٣٠٣/٤ ، **والمُمَغَّط** : المتناهي في الطول . **الجعد** : ملتوي ومنقبض الشعر . **القطط** : شديد الجعودة . **السبط** : المسترسل . **المطهم** : منتفخ الوجه وقيل الفاحش السمن ، وقيل النحيف الجسم . **المكلثم** : هو اجتماع لحم الوجه بلا جهومة . **أهدب الأشفار** : طويل شعر الأجفان . **جليل المشاش** : أي عظيم رؤوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين . **الكتد** : مجتمع الكتفين وهو الكاهل . **أجرد** : هو الذي ليس على بدنه شعر . **المسربة** : الشعر الدقيق الذي هو كأنه قضيب من الصدر إلى السرة . **الشَّثْن** : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين . **البديهة** : المفاجأة .

(٢) نفس المصدر الأخير . **الكراديس** : رؤوس العظام وقيل هي ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين والمنكبين أراد أنه ضخم الأعضاء .

(٣) صحيح مسلم ٢٥٨/٢ **ضليع الفم** : عظيم الفم . **أشكل العين** : طويل شق العين . **منهوس العقب** : قليل اللحم .

(٤) نفس المصدر . **مقصداً** : هو الذي ليس بجسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير ..

(٥) صحيح البخاري ٥٠٢/١ . **أزهر اللون** : أبيض مشرب بحمرة . **الأبيض الأمهق** : شديد البياض كلون الجص . **الآدم** : الأسمر والمعنى : ليس بأسمر ولا بأبيض كريه البياض بل أبيض بياضاً نيراً مشرباً .

وقال : إنما كان شيء – أي من الشيب – في صدغيه . وفي رواية : وفي الرأس نَبْذ[1] .

وقال أبو جحيفة : رأيت بياضاً تحت شفته السفلى : العنفقة[2] .

وقال عبد الله بن بسر : كان في عنفقته شعرات بيض[3] .

وقال البراء : كان مربوعاً بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته في حلة حمراء ، لم أر شيئاً قط أحسن منه[4] .

وكان يسدل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فرق رأسه بعد[5] .

قال البراء : كان أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً[6] .

وسئل : أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفي رواية : كان وجهه مستديراً[7] .

وقالت الربيع بنت معوذ : لو رأيته رأيت الشمس طالعة[8] .

وقال جابر بن سمرة : رأيته في ليلة إضحيان ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر – وعليه حلة حمراء – فإذا هو أحسن عندي من القمر[9] .

وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنا

---

(١) نفس المصدر ، وصحيح مسلم ٢٥٩/٢ . **والنبذ** : بضم النون وفتح الباء أو بفتح النون وتسكين الباء ومعناها : شعرات متفرقة .

(٢) صحيح البخاري ٥٠١/١ ، ٥٠٢ .

(٣) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) صحيح البخاري ٥٠٣/١ .

(٦) نفس المصدر ٥٠٢/١ ، وصحيح مسلم ٢٥٨/٢ .

(٧) صحيح البخاري ٥٠٢/١ ، وصحيح مسلم ٢٥٩/٢ .

(٨) رواه الدارمي .... مشكاة المصابيح ٥١٧/٢ .

(٩) رواه الترمذي في الشمائل ص٢ ، والدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٨/٢ .

لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث[1] .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر[2] .

وعرق مرة وهو عند عائشة ، فجعلت تبرق أسارير وجهه ، فتمثلت له بقول أبي كبير الهذلي :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل[3]

وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو ... كضوء البدر زايله الظلام[4]

وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان :

لو كنت من شيء سوى البشر ... كنت المضيء ليلة البدر

ثم يقول كذلك كان رسول الله ﷺ[5] .

وكان إذا غضب احمر وجهه ، حتى كأنما فقىء في وجنتيه حب الرمان[6] .

وقال جابر بن سمرة : كان في ساقيه حُمُوشة ، وكان لا يضحك إلا تبسماً ، وكنت إذا نظرت إليه قلت : أكحل العينين ، وليس بأكحل[7] .

قال ابن العباس : كان أفلج الثنيتين ، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه[8] .

وأما عنقه فكأنه جيدُ دُمْيَة في صفاء الفضة ، وكان في أشفاره غطف ، وفي لحيته كثافة ، وكان واسع الجبين ، أزج الحواجب في غير قرن بينهما ، أقنى العرنين ، سهل الخدين ، من لبته إلى

(١) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٣٠٦/٤ ، مشكاة المصابيح ٥١٨/٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥٠٢/١ .

(٣) رحمة للعالمين ١٧٢/٢ .

(٤ ، ٥) خلاصة السير ص٢٠ .

(٦) مشكاة المصابيح ٢٢/١ ، وراوه الترمذي في أبواب القدر : باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٣٥/٢ .

(٧) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٣٠٦/٤ . **والحموشة** : أي دقة ولطافة متناسبة لسائر أعضائه .

(٨) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٨/٢ . **والأفلج** : الذي بين أسنانه تباعد . **والثايا** : أسنان مقدمة الفم .

سرته يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، سواء البطن والصدر ، مسيح الصدر عريضه ، طويل الزند ، رحب الراحة ، سَبْط القَصَب ، خُمْصَان الأَخْمَصَين ، سائل الأطراف ، إذا زال زال قلعاً ، يخطو تكفياً ويمشي هوناً[1] .

وقال أنس : ما مسست جريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ ، ولا شممت ريحاً قط أو عرفاً قط ، وفي رواية : ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً ، أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ[2] .

وقال أبو جحيفة : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهي ، فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك[3] .

وقال جابر بن سمرة – وكان صبياً – : مسح خدي فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار[4] .

وقال أنس : كأن عرقه اللؤلؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب[5] .

وقال جابر : لم يسلك طريقاً فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه ، أو قال : من ريح عرقه[6] .

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة ، يشبه جسده ، وكان عند ناغض كتفه اليسرى ، جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل[7] .

---

(١) خلاصة السير ص١٩ ، ٢٠ . **الجيد** : العنق . **الدمية** : الصورة المصورة . **الأقنى** : الذي ارتفع أعلى أنفه واحدودب وسطه وضاق منخراه . **والعرنين** : الأنف وما صلب منه . **سبط القصب** : الممتد الذي ليس فيه تعقد ولا نتوء ، والقصَب يريد بها ساعديه وساقيه . **الأَخْمَصُ من القدم** : الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء ، والخمصان : المبالغ منه أي أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض .

(٢) صحيح البخاري ٥٠٣/١ ، صحيح مسلم ٢٥٧/٢ .

(٣) صحيح البخاري ٥٠٢/١ .

(٤) صحيح مسلم ٢٥٦/٢ . جونة عطار : التي يعد فيه الطيب ويحرز .

(٥) نفس المصدر .

(٦) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٧/٢ .

(٧) صحيح مسلم ٢٥٩/٢ ، ٢٦٠ . الثآليل : هو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها .

كمال النفس ومكارم الأخلاق:

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، وكان من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، قالت عائشة : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها[1] ، وكان أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضاً .

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره ، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[2] . وقال جابر : ما سئل شيئاً قط فقال : لا[3] .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه ، قال علي : كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[4] . قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ٥٠٣/١ .

(٢) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٣) نفس المصدر ٥٠٢/١ .

(٤) انظر الشفاء للقاضي عياض ٨٩/١ ومثل ذلك روى أصحاب الصحيح والسنن .

راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، في عنقه السيف ، وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا[1] .

وكان أشد الناس حياء وإغضاء ، قال أبو سعيد الخدري : كان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وإذا كره شيئاً عرف في وجهه[2] ، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه ، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا . وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذي عن علي أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[3] . (٦ : ٣٣) وسأل هرقل أبا سفيان ، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك ، وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس في أصحابه كأحدهم ، قالت عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته ، وكان بشراً من البشر يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه[4] .

وكان أوفى الناس بالعهود ، وأوصلهم للرحم ، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، أحسن الناس عشرة وأدباً ، وأبسط الناس خلقاً ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشاً ، ولا متفحشاً ، ولا لعاناً ، ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وكان لا يدع أحداً يمشي خلفه ، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل

(١) صحيح مسلم ٢٥٢/٢ ، وصحيح البخاري ٤٠٧/١ .
(٢) صحيح البخاري ٥٠٤/١ .
(٣) مشكاة المصابيح ٥٢١/٢ .
(٤) نفس المصدر ٥٢٠/٢ .

ولا ملبس ، ويخدم من خدمه ، ولم يقل لخادمه أف قط ، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ، ويشهد جنائزهم ، ولا يحقر فقيراً لفقره . كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : عليَّ ذبحها وقال آخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر: عليَّ طبخها ، فقال ﷺ : وعليَّ جمع الحطب ، فقالوا : نحن نكفيك . فقال : قد علمت أنكم تكفوني ، ولكني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه ، وقام وجمع الحطب[1] .

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ ؛ قال هند فيما قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه – لا بأطراف فمه – ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، ولم يكن يذم ذواقاً – ما يطعم – ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها – سماحة – وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر على الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن – لا يميز لنفسه مكاناً – إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسائه نصيبه ؛ حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجته صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه

(١) خلاصة السير ص٢٢ .

وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم – لا تخشى فلتاته – يتعاطفون بالتقوى ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب .

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه ، ولا يطلب الثناء إلا من مكافىء[1] .

وقال خارجة بن زيد : كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عمن تكلم من غير جميل ، كان ضحكه تبسماً ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيراً له واقتداء به[2] .

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، حتى خاطبه مثنياً عليه فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٦٨ : ٤) وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس ، وحببه إلى القلوب ، وصيره قائداً تهوي إليه الأفئدة ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء ، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً .

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره ، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال ، استضاء بنور ربه ، حتى صار خلقه القرآن ؟

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، وانظر أيضاً شمائل الترمذي .

(٢) نفس المصدر ١/١٠٧ .

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية ١٣ / ١١ / ١٣٩٦ هـ

بنارس الهند ٦ / ١١ / ١٩٧٦ م

ثبت المراجع

١ ـ إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام

شهاب الدين أحمد بن محمد الأسدي المكي (م ١٠٦٦هـ) المطبعة السلفية بنارس الهند ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

٢ ـ الأدب المفرد

محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) طبع استانبول ١٣٠٤هـ .

٣ ـ الأعلام

خير الدين الزركلي . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٥م .

٤ ـ البداية والنهاية

إسماعيل بن كثير الدمشقي مطبعة السعادة مصر ١٩٣٢م .

٥ ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام

أحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) المطبع القيومي كانفور الهند ١٣٢٣هـ .

٦ ـ تاريخ أرض القرآن

السيد سليمان الندوي (١٣٧٣هـ) معارف بريس أعظم كَده ـ الهند ١٩٥٥م (الطبعة الرابعة) .

٧ ـ تاريخ إسلام

شاه أكبر خان نجيب آبادي مكتبة رحمت ديوبند يوبي الهند .

٨ ـ تاريخ الأمم والملوك

ابن جرير الطبري المطبعة الحسينية المصرية .

٩ ـ تاريخ عمر بن الخطاب
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مطبعة التوفيق الأدبية بمصر .
١٠ ـ تحفة الأحوذي
أبو العلى عبد الرحمن المباركفوري (م ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٥م) جيد برقي بريس دهلي الهند ١٣٤٦-١٣٥٣هـ .
١١ ـ تفسير ابن كثير
إسماعيل بن كثير الدمشقي دار الأندلس بيروت .
١٢ ـ تفهيم القرآن
الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي مركزي مكتبة جماعت إسلامي الهند .
١٣ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (م ٥٩٧هـ) جيد برقي بريس دهلي الهند .
١٤ ـ جامع الترمذي
أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٢هـ ـــ ٢٧٥هـ) المكتبة (الرشيدية دهلي الهند) .
١٥ ـ الجهاد في الإسلام (الأردو)
الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، إسلامك پبليكشنز لميتد لاهور (باكستان) الطبعة الرابعة ١٩٦٧م .
١٦ ـ خلاصة السير
محب الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله الطبري م ٦٧٤هـ دلي برنتينگ بريس دهلي الهند ١٣٤٣هـ .
١٧ ـ رحمة للعالمين
محمد سليمان سلمان المنصورفوري (م ١٩٣٠م) حنيف بكڈيودلي .
١٨ ـ رسول أكرم كي سياسي زندگي
الدكتور حميد الله ، باريس سالم كمبيني ديوبندبو ـ بي الهند ١٩٦٣م .

١٩ ـ الروض الأنف

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (٥٠٨ـ٥٨١هـ) المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .

٢٠ ـ زاد المعاد

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب المعروف بابن القيم (٦٩١ـ٧٥١) المطبعة المصرية الطبعة الأولى ١٣٤٧ـ١٩٢٨م .

٢١ ـ سفر التكوين

٢٢ ـ سنن ابن ماجة

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (٢٠٧ـ٢٧٣هـ) .

٢٣ ـ سنن أبي داود

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٠٢ـ٢٧٥هـ ج١ المطبع المجيدي كانفور الهند ١٣٧٥هـ ٢ المكتبة الرحيمية ديوبنديو بي الهند .

٢٤ ـ سنن النسائي

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٢١٥ـ٣٠٣هـ) المكتبة السلفية لاهور (باكستان) .

٢٥ ـ السيرة الحلبية

ابن برهان الدين .

٢٦ ـ السيرة النبوية

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (٢١٣ أو ٢١٨هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر المطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .

٢٧ ـ شرح شذور الذهب

أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف المعروف بابن هشام الأنصاري (٧٠٨ـ٧٦١) مطبعة السعادة بمصر .

٢٨ ـ شرح صحيح مسلم
أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) المكتبة الرشيدية دهلي الهند ١٣٧٦هـ .
٢٩ ـ شرح المواهب اللدنية
الزرقاني نسخة عتيقة مخرومة الأوائل .
٣٠ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى
القاضي عياض مطبعة عثمانية استانبول ١٣١٢هـ .
٣١ ـ صحيح البخاري
محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) المكتبة الرحيمية (ديوبند الهند) ١٣٨٤-١٣٨٧هـ .
٣٢ ـ صحيح مسلم
مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ) المكتبة الرشيدية دهلي الهند ١٣٧٦هـ.
٣٣ ـ صحيفة حبقوق
٣٤ ـ صلح الحديبية
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١هـ ١٩٧١م .
٣٥ ـ الطبقات الكبرى
محمد بن سعد مطبعة بريل ليدن ١٣٢٢هـ .
٣٦ ـ عون المعبود شرح أبي داود
أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (الطبعة الأولى الهندية) .
٣٧ ـ غزوة أحد
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) .
٣٨ ـ غزوة بدر الكبرى
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثالثة) ١٣٧٦هـ ـ ١٩٧٦م .
٣٩ ـ غزوة خيبر
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١-١٩٧١ .

٤٠ ـ غزوة بني قريظة

محمد أحمد باشميل (الطبعة الأولى) ١٣٧٦هـ ـ ١٩٦٦م .

٤١ ـ فتح الباري

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ـ٨٥٢) المطبعة السلفية ومكتبتها ، الروضة . القاهرة .

٤٢ ـ فقه السيرة

محمد الغزالي . دار الكتاب العربي بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .

٤٣ ـ في ظلال القرآن

سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الثالثة .

٤٤ ـ القرآن الكريم

٤٥ ـ قلب جزيرة العرب

فؤاد حمزة المطبعة السلفية ومكتبتها ، الروضة بمصر ١٣٥٢هـ ١٩٢٣م .

٤٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي الطبعة الرابعة مكتبة دار العروبة القاهرة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م .

٤٧ ـ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

الشيخ محمد الخضري بك ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، الطبعة الثامنة ١٣٨٢هـ .

٤٨ ـ مختصر سيرة الرسول

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي (م ١٢٠٦) مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م .

٤٩ ـ مختصر سيرة الرسول

الشيخ عبد الله بن محمد النجدي آل الشيخ (م بمصر ١٢٤٢هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها الروضة بمصر ١٣٧٩هـ .

٥٠ ـ مدارك التنزيل
للنسفي .
٥١ ـ مرقاة المفاتيح ج ٢
الشيخ أبوم الحسن عبيد ا لله الرحماني المباركفوري نامي بريس لكنؤ الهند
١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م .
٥٢ ـ مروج الذهب
أبو الحسن علي المسعودي مطبعة الشرق الإسلامية القاهرة .
٥٣ ـ المستدرك
أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد. الهند.
٥٤ ـ مسند أحمد
الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (م١٦٤هـ) .
٥٥ ـ مسند الدارمي
أبو محمد عبد الله بن عبد الله الرحمن الدارمي ١٨١ـ٢٥٥هـ .
٥٦ ـ مشكاة المصابيح
ولي الدين محمد بن عبد الله التبريزي ، المكتبة الرحيمية ديوبند يوبي ـ الهند .
٥٧ ـ معجم البلدان
ياقوت الحموي .
٥٨ ـ المواهب اللدنية
للقسطلاني المطبعة الشرفية ١٣٣٦هـ ، ١٩٠٧م .
٥٩ ـ موطأ الإمام مالك
الإمام مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩هـ) المكتبة الرحيمية ديوبند يوبي ـ
الهند .
٦٠ ـ وفاء الوفا
علي بن أحمد السمهودي .

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

كلمة معالي الشيخ محمد علي الحركان ٥

مقدمة الناشر ٩

كلمة المؤلف ١٣

موقع العرب وأقوامها ١٥–٢٢

موقع العرب ١٥

أقوام العرب ١٦

الحكم والإمارات في العرب ٢٣–٣٤

الملك باليمن ٢٣

الملك بالحيرة ٢٥

الملك بالشام ٢٧

الإمارة بالحجاز ٢٧

الحكم في سائر العرب ٣٢

الحالة السياسية ٣٣

ديانات العرب ٣٥

الحالة الدينية ٤١

صور من المجتمع العربي الجاهلي ٤٣–٤٧

الحالة الاجتماعية ٤٣

الموضوع	الصفحة

الحالة الاقتصادية ٤٥
الأخلاق ٤٦
نسب النبي ﷺ وأسرته ٤٨-٥٣
نسب النبي ﷺ ٤٨
الأسرة النبوية ٤٩
المولد وأربعون عاماً قبل النبوة ٥٤-٦٤
المولد ٥٤
في بني سعد ٥٥
إلى أمه الحنون ٥٧
إلى جده العطوف ٥٧
إلى عمه الشفيق ٥٨
يستسقى الغمام بوجهه ٥٨
بحيرا الراهب ٥٨
حرب الفجار ٥٩
حلف الفضول ٥٩
حياة الكدح ٦٠
زواجه خديجة ٦٠
بناء الكعبة وقضية التحكيم ٦١
السيرة الإجمالية قبل النبوة ٦٢
في ظلال النبوة والرسالة ٦٥-٧٠
في غار حراء ٦٥
جبريل ينزل بالوحي ٦٦
فترة الوحي ٦٩

الموضوع	الصفحة

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية ٦٩
استطراد في بيان أقسام الوحي ٧٠
أمر القيام بالدعوة إلى الله وموادها ٧١
أدوار الدعوة ومراحلها ٧٤
المرحلة الأولى (جهاد الدعوة) ٧٥-٧٧
ثلاث سنوات من الدعوة السرية ٧٥
الرعيل الأول ٧٥
الصلاة ٧٦
الخبر يبلغ إلى قريش إجمالاً ٧٧
المرحلة الثانية (الدعوة جهاراً) ٧٨-١٠٨
أول أمر بإظهار الدعوة ٧٨
الدعوة في الأقربين ٧٨
على جبل الصفا ٧٩
الصدع بالحق وردود فعل المشركين ٨٠
وفد قريش إلى أبي طالب ٨١
المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة ٨١
أساليب شتى لمجابهة الدعوة ٨٣
الاضطهادات ٨٥
دار الأرقم ٩١
الهجرة الأولى إلى الحبشة ٩٢
مكيدة قريش بمهاجري الحبشة ٩٤
قريش يهددون أبا طالب ٩٧
قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى ٩٧
فكرة الطغاة في إعدام النبي ﷺ ٩٨

الموضوع	الصفحة

إسلام حمزة رضي الله عنه ١٠٠
إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٠١
ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ ١٠٦
أبو طالب يجمع بني هاشم وبني عبد المطلب ١٠٧
المقاطعة العامة ١٠٩-١١٢
ميثاق الظلم والعدوان ١٠٩
ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب ١١٠
نقض صحيفة الميثاق ١١٠
آخر وفد قريش إلى أبي طالب ١١٣
عام الحزن ١١٥-١١٧
وفاة أبي طالب ١١٥
خديجة إلى رحمة الله ١١٦
تراكم الأحزان ١١٦
الزواج بسودة رضي الله عنها ١١٧
عوامل الصبر والثبات ١١٨
المرحلة الثالثة (دعوة الإسلام خارج مكة) ١٢٥-١٢٩
الرسول ﷺ في الطائف ١٢٥
عرض الإسلام على القبائل والأفراد ١٣٠-١٤٢
القبائل التي عرض عليها الإسلام ١٣٠
المؤمنون من غير أهل مكة ١٣١
ست نسمات طيبة من أهل يثرب ١٣٥
استطراد - تزويج رسول الله ﷺ بعائشة ١٣٦
الإسراء والمعراج ١٣٧
بيعة العقبة الأولى ١٤٣-١٤٦

الموضوع الصفحة

سفير الإسلام في المدينة..... ١٤٣
النجاح المغتبط..... ١٤٤
بيعة العقبة الثانية..... ١٤٧-١٥٤
بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية..... ١٤٨
بنود البيعة..... ١٤٩
التأكيد من خطورة البيعة..... ١٥٠
عقد البيعة..... ١٥٠
اثنا عشر نقيباً..... ١٥١
نقباء الخزرج..... ١٥١
نقباء الأوس..... ١٥٢
شيطان يكتشف المعاهدة..... ١٥٢
استعداد الأنصار لضرب قريش..... ١٥٣
قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب..... ١٥٣
تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين..... ١٥٤
طلائع الهجرة..... ١٥٥
في دار الندوة (برلمان قريش)..... ١٥٨-١٦٠
النقاش البرلماني والإجماعي على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ..... ١٦٠
هجرة النبي ﷺ..... ١٦١-١٧٤
تطويق منزل الرسول ﷺ..... ١٦١
الرسول ﷺ يغادر بيته..... ١٦٣
من الدار إلى الغار..... ١٦٣
إذ هما في الغار..... ١٦٤
في الطريق إلى المدينة..... ١٦٦
النزول بقباء..... ١٧٠

الموضوع	الصفحة

الدخول في المدينة..... ١٧٢
الحياة في المدينة..... ١٧٥-١٩١
المرحلة الأولى - الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة..... ١٧٧
بناء مجتمع جديد..... ١٨٤
بناء المسجد النبوي..... ١٨٤
المؤاخاة بين المسلمين..... ١٨٥
ميثاق التحالف الإسلامي..... ١٨٦
أثر المعنويات في المجتمع..... ١٨٨
معاهدة مع اليهود - بنود المعاهدة..... ١٩٢
الكفاح الدامي..... ١٩٤-٢٠٣
استفزازات قريش ضد المسلمين..... ١٩٤
إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام..... ١٩٥
قريش تهدد المهاجرين..... ١٩٥
الإذن بالقتال..... ١٩٦
الغزوات والسرايا قبل بدر..... ١٩٧
غزوة بدر الكبرى..... ٢٠٤-٢٣٣
سبب الغزوة..... ٢٠٤
مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات..... ٢٠٤
الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر..... ٢٠٥
النذير في مكة..... ٢٠٥
أهل مكة يتجهزون للغزو..... ٢٠٦
قوام الجيش المكي..... ٢٠٦
مشكلة قبائل بني بكر..... ٢٠٦
جيش مكة يتحرك..... ٢٠٧

الموضوع	الصفحة
العير تفلت	٢٠٧
هم الجيش المكي بالرجوع	٢٠٧
حراجة موقف الجيش الإسلامي	٢٠٨
المجلس الاستشاري	٢٠٨
الجيش الإسلامي يواصل سيره	٢١٠
الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف	٢١٠
الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي	٢١٠
نزول المطر	٢١١
الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية	٢١١
مقر القيادة	٢١٢
تعبئة الجيش وقضاء الليل	٢١٢
جيش المكي في عرصة القتال	٢١٣
الجيشان يتراآن	٢١٥
ساعة الصفر وأول وقود المعركة	٢١٦
المبارزة	٢١٦
الهجوم العام	٢١٧
الرسول ﷺ يناشد ربه	٢١٧
نزول الملائكة	٢١٨
الهجوم المضاد	٢١٨
إبليس ينسحب عن ميدان القتال	٢١٩
الهزيمة الساحقة	٢١٩
صمود أبي جهل	٢٢٠
مصرع أبي جهل	٢٢٠
من روائع الإيمان في هذه المعركة	٢٢٢

الموضوع	الصفحة

قتلى الفريقين ٢٢٤
مكة تتلقى نبأ الهزيمة ٢٢٥
المدينة تتلقى أنباء النصر ٢٢٧
الجيش النبوي يتحرك نحو المدينة ٢٢٧
وفود التهنئة ٢٢٨
قضية الأسارى ٢٢٩
القرآن يتحدث حول موضوع المعركة ٢٣١
النشاط العسكري بين بدر وأحد ٢٣٣-٢٣٤
غزوة بني سليم بالكدر ٢٣٤
مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ ٢٣٥
غزوة بني قينقاع ٢٣٦
نموذج من مكيدة اليهود ٢٣٧
بنو قينقاع ينقضون العهد ٢٣٨
الحصار ثم التسليم ثم الجلاء ٢٣٩
غزوة السويق ٢٤٠
غزوة ذي أمر ٢٤١
قتل كعب بن الأشرف ٢٤٢
غزوة بحران ٢٤٥
سرية زيد بن حارثة ٢٤٥
غزوة أحد ٢٤٨-٢٨٩
استعداد قريش لمعركة ناقمة ٢٤٨
قوام جيش قريش وقيادته ٢٤٩
جيش مكة يتحرك ٢٤٩
الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو ٢٥٠

الموضوع	الصفحة
استعداد المسلمين للطوارىء	٢٥٠
الجيش المكي إلى أسوار المدينة	٢٥٠
المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع	٢٥١
تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال	٢٥٢
استعراض الجيش	٢٥٣
المبيت بين أحد والمدينة	٢٥٣
تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه	٢٥٣
بقايا الجيش الإسلامي إلى أحد	٢٥٤
خطة الدفاع	٢٥٥
الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش	٢٥٦
تعبئة الجيش المكي	٢٥٧
مناورات سياسية من قبل قريش	٢٥٧
جهود نسوة قريش في التحميس	٢٥٨
أول وقود المعركة	٢٥٨
ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته	٢٥٩
القتال في بقية النقاط	٢٦٠
مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب	٢٦١
السيطرة على الموقف	٢٦٢
من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة	٢٦٢
نصيب فصيلة الرماة في المعركة	٢٦٢
الهزيمة تنزل بالمشركين	٢٦٣
غلطة الرماة الفظيعة	٢٦٣
خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي	٢٦٤
موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق	٢٦٤

الموضوع	الصفحة

تبدد المسلمين في الموقف ٢٦٥
احتدام القتال حول رسول الله ﷺ ٢٦٧
أحرج ساعة في حياة الرسول ﷺ ٢٦٧
بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ ٢٧٠
تضاعف ضغط المشركين ٢٧١
البطولات النادرة ٢٧١
إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة ٢٧٢
الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف ٢٧٣
مقتل أبي بن خلف ٢٧٥
طلحة ينهض بالنبي ﷺ ٢٧٥
آخر هجوم قام به المشركون ٢٧
تشويه الشهداء ٢٧٦
مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة ٢٧٧
بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب ٢٧٨
شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر ٢٧٨
مواعدة التلاقي في بدر ٢٧٩
التثبت من موقف المشركين ٢٧٩
تفقد القتلى والجرحى ٢٧٩
جمع الشهداء ودفنهم ٢٨١
الرسول ﷺ يثني على ربه عز وجل ويدعو ٢٨٢
الرجوع إلى المدينة ، ونوادر الحب والتفاني ٢٨٢
الرسول ﷺ في المدينة ٢٨٣
قتلى الفريقين ٢٨٤
حالة الطوارىء إلى المدينة ٢٨٤

الموضوع	الصفحة

غزوة حمراء الأسد ٢٨٤
القرآن يتحدث حول موضوع المعركة ٢٨٨
الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة ٢٨٩
السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب ٢٩٠-٣٠٠
سرية أبي سلمة ٢٩٠
بعث عبد الله بن أنيس ٢٩١
بعث الرجيع ٢٩١
مأساة بئر معونة ٢٩٣
غزوة بني النضير ٢٩٤
غزوة نجد ٢٩٧
غزوة بدر الثانية ٢٩٨
غزوة دومة الجندل ٢٩٩
غزوة الأحزاب ٣٠١
غزوة بني قريظة ٣١٤
النشاط العسكري بعد هذه الغزوة ٣١٩-٣٢٤
مقتل سلام بن أبي الحقيق ٣١٩
سرية محمد بن مسلمة ٣٢١
غزوة بني لحيان ٣٢١
متابعة البعوث والسرايا ٣٢٢
غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع ٣٢٥-٣٣٣
دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق ٣٢٦
دور المنافقين في غزوة بني المصطلق ٣٢٩
١ - قول المنافقين « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ٣٢٩
٢ - حديث الإفك ٣٣١

الموضوع	الصفحة

البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع ٣٣٤

وقعة الحديبية ٣٣٧-٣٤٨

سبب عمرة الحديبية ٣٣٧

استنفار المسلمين ٣٣٧

المسلمون يتحركون إلى مكة ٣٣٧

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت ٣٣٨

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامي ٣٣٨

بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش ٣٣٩

رسل قريش ٣٣٩

هو الذي كف أيديهم عنكم ٣٤٠

عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش ٣٤١

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان ٣٤١

إبرام الصلح وبنوده ٣٤٢

رد أبي جندل ٣٤٣

النحر والحلق للحل عن العمرة ٣٤٣

الإباء عن رد المهاجرات ٣٤٤

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة ٣٤٤

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ ٣٤٦

انحلت أزمة المستضعفين ٣٤٧

إسلام أبطال من قريش ٣٤٧

المرحلة الثانية (طور جديد) ٣٤٩

مكاتبة الملوك والأمراء ٣٥٠

١ - الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة ٣٥٠

الموضوع	الصفحة

٢ – الكتاب إلى المقوقس ملك مصر ٣٥٣
٣ – الكتاب إلى كسرى ملك فارس ٣٥٤
٤ – الكتاب إلى قيصر ملك الروم ٣٥٥
٥ – الكتاب إلى المنذر بن ساوي ٣٥٨
٦ – الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة ٣٥٨
٧ – الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق ٣٥٩
٨ – الكتاب إلى ملك عمان ٣٥٩
النشاط العسكري بعد صلح الحديبية ٣٦٢–٣٧٩
غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد ٣٦٢
غزوة خيبر ووادي القرى ٣٦٤
سبب الغزوة ٣٦٤
الخروج إلى خيبر ٣٦٥
عدد الجيش الإسلامي ٣٦٥
اتصال المنافقين باليهود ٣٦٥
الطريق إلى خيبر ٣٦٦
بعض ما وقع في الطريق ٣٦٦
الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر ٣٦٧
التهيؤ للقتال وحصون خيبر ٣٦٨
بدء المعركة وفتح حصن ناعم ٣٦٩
فتح حصن الصعب بن معاذ ٣٧٠
فتح قلعة الزبير ٣٧١
فتح قلعة أبي ٣٧٢
فتح حصن النزار ٣٧٢

الموضوع	الصفحة

فتح الشطر الثاني من خيبر ٣٧٣
المفاوضة ٣٧٣
قتل ابني أبي الحقيق لنقض المعاهدة ٣٧٤
قسمة الغنائم ٣٧٤
قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعريين ٣٧٥
الزواج بصفية ٣٧٦
أمر الشاة المسمومة ٣٧٦
قتلى الفريقين في معارك خيبر ٣٧٧
فدك ٣٧٧
وادي القرى ٣٧٨
تيماء ٣٧٨
العودة إلى المدينة ٣٧٩
سرية أبان بن سعيد ٣٧٩
بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة ٣٨٠-٣٩٣
غزوة ذات الرقاع ٣٨٠
عمرة القضاء ٣٨٤
معركة مؤتة ٣٨٧
سبب المعركة ٣٨٧
أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ ٣٨٧
توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبد الله بن رواحة ٣٨٨
تحرك الجيش الإسلامي ومباغتة حالة رهيبة ٣٨٨
المجلس الاستشاري بمعان ٣٨٩
الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو ٣٨٩

الموضوع	الصفحة

بداية القتال وتناوب القواد ٣٨٩
الراية إلى سيف من سيوف الله ٣٩٠
نهاية المعركة ٣٩١
قتلى الفريقين ٣٩٢
أثر المعركة ٣٩٢
سرية ذات السلاسل ٣٩٢
سرية أبي قتادة إلى خضرة ٣٩٣
غزوة فتح مكة ٣٩٤-٤١١
سبب الغزوة ٣٩٤
أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح ٣٩٥
التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء ٣٩٧
الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة ٣٩٩
الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران ٣٩٩
أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ ٤٠٠
الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة ٤٠١
قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي ٤٠٢
الجيش الإسلامي بذي طوى ٤٠٣
الجيش الإسلامي يدخل مكة ٤٠٣
الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام ٤٠٤
الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قريش ٤٠٤
لا تثريب عليكم اليوم ٤٠٥
مفتاح البيت إلى أهله ٤٠٥
بلال يؤذن على الكعبة ٤٠٥

الموضوع	الصفحة
صلاة الفتح أو صلاة الشكر	٤٠٦
إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين	٤٠٦
إسلام صفوان بن أمية وفضالة بن عمير	٤٠٧
خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح	٤٠٧
تخوف الأنصار من بقاء رسول الله ﷺ في مكة	٤٠٨
أخذ البيعة	٤٠٨
إقامته ﷺ بمكة وعمله فيها	٤٠٩
السرايا والبعوث	٤٠٩
المرحلة الثالثة	٤١٢
غزوة حنين	٤١٣-٤١٧
مسير العدو ونزوله بأوطاس	٤١٣
مجرب الحروب يغلط رأي القائد	٤١٣
سلاح اكتشاف العدو	٤١٤
سلاح استكشاف رسول الله ﷺ	٤١٤
الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين	٤١٤
الجيش الإسلامي يباغت الرماة المهاجمين	٤١٥
رجوع المسلمين واحتدام المعركة	٤١٦
انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة	٤١٦
حركة المطاردة	٤١٧
الغنائم	٤١٧
غزوة الطائف	٤١٧-٤٢٣
قسمة الغنائم بالجعرانة	٤١٩
الأنصار تجد على رسول الله ﷺ	٤٢٠

الموضوع	الصفحة

قدوم وفد هوازن ٤٢١
العمرة والانصراف إلى المدينة ٤٢٢
البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح ٤٢٤-٤٢٨
المصدقون ٤٢٤
السرايا ٤٢٥
غزوة تبوك ٤٢٩-٤٣٩
سبب الغزوة ٤٢٩
الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان ٤٣٠
الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان ٤٣١
زيادة خطورة الموقف ٤٣١
الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم ٤٣١
الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان ٤٣٢
المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو ٤٣٢
الجيش الإسلامي إلى تبوك ٤٣٣
الجيش الإسلامي بتبوك ٤٣٥
الرجوع إلى المدينة ٤٣٦
المخلفون ٤٣٦
أثر الغزوة ٤٣٨
نزول القرآن حول موضوع الغزوة ٤٣٨
بعض الوقائع المهمة في هذه السنة ٤٣٩
حج أبي بكر رضي الله عنه ٤٤٠
نظرة على الغزوات ٤٤١
الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ٤٤٤

الموضوع	الصفحة

الوفود ٤٤٥
نجاح الدعوة وأثرها ٤٥٥
حجة الوداع ٤٥٨
آخر البعوث ٤٦٣
إلى الرفيق الأعلى ٤٦٤
طلائع التوديع ٤٦٤
بداية المرض ٤٦٤
الأسبوع الأخير ٤٦٥
قبل الوفاة بخمسة أيام ٤٦٥
قبل أربعة أيام ٤٦٦
قبل يوم أو يومين ٤٦٧
قبل يوم ٤٦٧
آخر يوم من الحياة ٤٦٨
الاحتضار ٤٦٩
تفاقم الأحزان على الصحابة ٤٦٩
موقف عمر ٤٧٠
موقف أبي بكر ٤٧٠
التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض ٤٧١
البيت النبوي ٤٧٣
الصفات والأخلاق ٤٧٩-٤٨٨
جمال الخلق ٤٧٩
كمال النفس ومكارم الأخلاق ٤٨٤
ثبت المراجع ٤٨٩-٤٩٤